نشيد الصحراء: جينالوجيا المجاز في الخطاب الثقافي العربي

بقلم: د. عبد الفتاح شهيد *

يحيا المجاز في الخطاب الثقافي العربي حياة مزدوجة باذخة هنيئة أو ملتبسة شقية، فبين مَنْ يكتشف أن أكثر اللغة -مع تأمله- مجاز، وَطَلب المعاني في ظواهر الألفاظ ضياع وهلاك؛ ومَن يكشف أن المجاز من عوارض الألفاظ، وهو طاغوت لتعطيل النصوص والأسماء والصفات؛ تتغلغل بنية المجاز في الوجدان العربي تغلغلَها في الوجدان الإنساني، وتتحرك بديناميّة في حقول الأدب والفكر والعقيدة، وحين تعجز عن البروز تتستر لتنغرس في أشكال التعبير الثقافي، وتتشكل في أنساق التفكير الاجتماعي، وتتمكن من أنماط التدبير السلطوي، فتضْحي جرّاء ذلك آليةً للتحرر من قيود اللغة، ودليلًا عمليًا للانفلات من المعايير الأخلاقية المترسّبة، والقوانين الاجتماعية المتسلطة، كما قد تصبح في غفلة منا أداةً للهيمنة ووسيلةً لتكريس التسلّط، وآليةً للحد من حركات الأجساد والخيالات.

* أكاديمي مغربي.

ومنذ القدم أدرك العرب دورَ اللسان في تحرير الإنسان، فكانت لهم طقوس غريبة في «أَسْر» الشعراء، والحدّ من خيالاتهم الجامحة وأشعارهم الجانحة، كما كانت للشعراء طرقٌ بديعة في المقاومة للتعالي عن كل سلطة، وتحرير الذات الشعرية من كل ضرورة، والتعبير عن كينونة ثقافية وجمالية تسعى وراء الانعتاق والحرية، وكان المجاز في سائر ذلك آليةً أساسية للتجاوز والانتقال والعدول، يمارس غوايته على القلوب والأسماع، بوصفه دليل فصاحة وكنز

بلاغة، ويضاعف تسلُّطه على النفوس والأذهان، باعتباره دليلَ قوة ووسيلةَ تحرّر.

القريض على أبواب الموت

عبد يغوث سيّدُ بني الحارث، شاعر وفارس[1]، من الشعراء القلائل الذين لا تخبو جذوة أشعارهم بإحاطة الموت بنحورهم، فأشعاره -حسب الجاحظ- في الأمن والخوف سواء، مما يدل على «سكون جأش، وقوة غريزة». أعطى في نفسه لبني تيم ألف ناقة بعد أَسْره، فأبوا إلا قتله، وكانوا قد شدُّوا لسانه بأنساع (حبال تشد بها النعال) خوفًا من الهجاء، فعاهدهم فأطلقوه لينوح على نفسه، وفي أثناء ذلك طلب أن يُقتل قتلة كريمة، فقطعوا له عرقًا وتركوه ينزف، وهو يقول قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَلا لا تَلُومَانِي كَفَى اللَّوْمَ ما بِيَا
وما لَكُما في اللَّوْم خَيْرٌ ولا لِيَا

ومنها:

أَقُولُ وقد شَدُّوا لسانِي بِنِسْعَةٍ:
أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا عَنْ لِسَانِيَا

فشدُّ اللسان بحبال تُشدّ بها النعال أداةٌ لعقل انطلاقات الخيال، ووسيلة مجازية للإمعان في إذلال القول والقائل. غير أن الشاعر وهو في غاية الضعف في أَسْره انتزع من سجّانيه الحق في القول، كما انتزع منهم الحق في اختيار طريقة موته، فاختار النوح على النفس وذم الأحباب؛ وفي البكاء على النفس والأهل حيلة مجازية لشحذ الهِمم وبعث الحميّات في الأجيال المتعاقبة من أبناء القبيلة، واستكمل عبد يغوث مجازية الصورة باختياره لطريقة موت مُفعمة بالدلالات والإيحاءات حين اختار نزيف الدم والشعر في آن واحد، فقاوم سوءَ «القتل» وفناءَه بقوة «القول» ومكوثه، فنزف دمًا من الوريد وهو يَقرِض الشعر على أبواب الموت.

نشيدُ الحرية طريقُ التحرر

غير بعيد عن هذه الأجواء الحربية عاش الشعراء الصعاليك حياة مَجازية في متون اللغة، أنشدوا خلالها أجمل القصائد، إلى جانب حياة السلب والنهب التي عاشوها على هامش مجتمعاتهم القبلية، وكان من أهم مظاهر هذه الحياة المجازية إظهار الانفصال عن الجماعة،

(1) ينظر في التعريف به، والشعر الذي قاله في يوم الكُلاب الثاني، كتاب أيام العرب في الجاهلية، تأليف: محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ص: 124-131.

واختيار الوحوش في مجاهل الفيافي بديلًا عن سلطة القبيلة وتجمعاتها البشرية. وتشكّل القصيدة المعروفة بلامية العرب للشنفرى[1] نصًّا نوويًّا في هذا السياق؛ فلم تُسَمَّ قصيدة غيرها من اللّاميات الكثيرة التي أبدعها الخيال الشعري العربي بهذا الاسم، كما ظلت متنًا محوريًّا للاستشهاد في علوم اللغة والأدب، وترجمت حديثًا إلى العديد من اللغات العالمية؛ ومطلعها:

أَقيموا بَنـي أُمّي صُدورَ مَطِيِّـكُم
فَإِنّـي إِلـى قَـومٍ سِـواكُم لَأَمْيَـلُ

ومنها:

ولـي دُونَكُم أهلونَ: سِـيدٌ عَمَلَّسٌ
وأَرْقَـطُ زُهْلُـولٌ، وعَرْفَـاءُ جَيْأَلُ

(سيد عملس: ذئب قوي سريع، أرقط زهلول: النمر في جلده بياض وسواد، عرفاء جيأل: ضبع طويلة العرف)، فعلى الهامش يعيش الشاعر وأقرانه مجازاتهم الأثيرة، ويحيون في بدائلهم الطبيعية مع حيوانات الغاب بعيدًا عن حياة اللهو والترف، ويجدون في «فردانيتهم» الحرة بديلًا عن الانتماءات القبلية المتكلّسة، فسَمَح المجازُ للشاعر باستبدال المجتمع الحيواني المُفعم بالحركة والحرية، بالمجتمع القبَلي الآهل بخنوعه ونمطيته، فآثر الشنفرى الحياة خارج كل السلطات، في حركة دؤوبة سريعة تدل على قوة وفروسية، وخِفة ورشاقة تُنبئان عن زهد في حياة الترف، وإسدال للعُرْف تحلّلًا من كل الأعراف والتقاليد.

صراع المجازات

الحطيئة هو جَرْول بن أوس[2]، سُمّي بالحطيئة لقِصَره ودمامته، تصفه كتب التراجم بأنه كان مغْموزَ النسب، سَؤولًا مُلحفًا، قبيح المنظر، رقيق الدين. وفي كتب الأدب أنه كان من المُشرَّفين بشعرهم، وأحد فحول الشعراء وفصحائهم، هجا الزِّبْرقان بن بدر (الزبرقان: القمر، سُمّي به لحسنه!) -وكان سيدًا في الجاهلية عظيم القدر في الإسلام- بأبيات اشتهر منها قوله:

دَعِ المَـكارِمَ لا تَرحَـل لِبُغيَتِهـا
وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسـي

(1) تنظر أخبار الشنفرى في: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، 3/ 343-345.

(2) قصة الحطيئة وأشعاره في: ديوان الحطيئة، مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، 1993، (في مقدمة المحقق ومواضع مختلفة من الديوان).

فاشتكى الزبرقانُ الحطيئةَ إلى الأمير عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فاستدعى الأميرُ أهلَ العلم بالشعر للإفتاء في الواقعة، وكان في مقدمتهم حسان بن ثابت، فسأله: هل هجاه؟ فقال حسانُ: ما هجاه ولكنه سَلَحَ عليه، فأمر أمير المؤمنين بحبس الحطيئة في «جُبّ»، فاستعطفه بأبيات منها قوله:

مـاذا تَقـولُ لِأَفـراخٍ بِـذي مَرَخٍ
حُمرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَـجَرُ؟
أَلقَيـتَ كاسِـبَهُم في قَعـرِ مُظلِمَةٍ
فَاغْفِـر عَلَيـكَ سَـلامُ اللهِ يـا عُمَرُ

فلما سمع -رضي الله عنه- ذلك رقّ لحاله وأفرج عنه.

تنضح حكاية الحطيئة والزبرقان بالمجازات، وتبرز مثالًا واضحًا لتحكّم المجاز وسطوته في سبيل التوريط، إلى جانب حضوره وفعاليته في سبيل التحرير، فتسْميَة الرجلين لعبة مجازية سافرة، فسمّي الحطيئة مجازًا عن قِصَره والتصاقه بالأرض، أو عن دمامته وقُبح صورته، أو عن الشك في نسبه، وفي كل ذلك من التحقير ما يعلو بعضُه فوق بعض. وتَسْمِية الزبرقان بن بدر مجازٌ عن حسنه ورِفعة نسبه وعلو مكانته.

وقد استطاع الحطيئة أن يسترد شرفه المهدور ويكتسب مهابته المفقودة بانتسابه إلى الكلمة، وفصاحته وقوة عارضته الشعرية، كما استطاع الزبرقان أن يحافظ على مكانته بعد انتسابه إلى الإسلام، ودفاعه عن العقيدة الجديدة، وهو وَضْع سيستمر لسنوات طويلة إلى أن سجّل التاريخ الأدبي العربي هذه المواجهة الشعرية والثقافية بين اتجاهين مختلفين، يمثل فيهما الحطيئة «الاتجاه الجاهلي» المتمكن، وهو آخر الفحول، ينتهي نسبه الشعري إلى مدرسة زهير بن أبي سلمى، بينما يمثل الزبرقان بن بدر «الاتجاه الإسلامي المحدث» الباحث في التجربة الإسلامية عن نسب شعري يعزز نسبه العائلي الرفيع ووضعه المريح في المجتمع الإسلامي الجديد.

غير أن الزبرقان أدرك سريعًا أن هذه المعركة محسومة شعريًّا لصالح الحُطيئة، فاختار أن ينتقل بها إلى رَدْهات المحاكم، وحتى لا يتسرع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في حكمه استدعى خبيرًا في المجال ممن خبر أساليب الشعر العربي في الجاهلية والإسلام، فجاء تقرير حسان ابن ثابت بليغًا موجزًا، معبرًا عن إيجاع في الهجاء، محمّلًا بصورة مجازية مُغرقة

في التخييل، تُصوّر الحُطيئة في صورة موغلة في الإيذاء النفسي للزبرقان، وقد وصفه في تقريره بأنه لم يهْجُهُ، ولكنه فعل به ما هو أكثر من الهجاء وأقسى؛ فقد «سَلَحَ» عليه (أي أفرغ عليه ما في بطنه!). ثم جاء الحكم من مستوى جسامة الفعل، فحُبس الحطيئة في حفرة تحت مستوى الأرض، غير أن الشاعر لن يستسلم بهذه السهولة، وسيلجأ من جديد إلى عارضته الشعرية، وسيستدعي المجاز آلية للتحرر من ورطته، وهو يصور مأساة أبنائه أبدع تصوير، فجعلهم أفراخًا ضعافًا يعانون من الجوع والعطش في أرض قاحلة دون ماء ولا شجر، كما مارس نوعًا من «التقية الشعرية» جعلته يعبّر تعبيرًا إسلاميًّا في جوهره، ما أبعد شعر الحطيئة الذي وصلنا عنه! «فاغفر عليك سلام الله يا عمر». فوقعت تلك الصورة وهذه الأساليب موقعًا حسنًا في قلب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فبكى بكاء شديدًا وأخلى سبيله.

وفي الختام، فإن جاذبية المجاز تتجلّى في ديناميته واختراقه لطبقات الفكر والثقافة والأدب، وتوظيفه لمختلف العناصر الفاعلة في الحقل الثقافي العربي، فاستُدعي المجاز بنيةً نسقيةً لتقييد الحرية وعقل الخيال، والحد من انطلاقاته، كما استُدعِيَ من الشعراء آليةً جمالية للتأثير والتوجيه ومقاومة السلطة المتمكنة؛ فإذا ماتوا ماتوا أحرارًا ينزفون شعرًا، وإذا أفلتوا أفلتوا أشرافًا يصمّمون على القول وينافحون عن اختياراتهم الجمالية.

وهي توجّهات منغرسة في الوجدان العربي، وأوضح دليل على ذلك أن هذه الوقائع الثقافية والنصوص الشعرية لا تزال إلى اليوم تمارس تأثيرها في الخطاب الثقافي العربي بمستويات مختلفة، وكان «المجاز» في كل ذلك مَدارها الأساس ومُحركها الدينامي، فقصيدة عبد يغوث بن الحارث وقصته من أهم ما تواتر من يوم الكُلاب الثاني، وهو يوم من أعظم أيام العرب[1]، ولبنة أساسية في صرح ثقافتهم الحربية والشعرية، كما أن قصيدة لامية العرب للشنفرى من النصوص النووية في الفكر واللغة والأدب، لشاعر بلغ تأثير شعره في الأجيال القادمة أن تمنى بعضُ أمراء الأمويين لو كانوا من نسل الشعراء الصعاليك، أما «واقعة الحطيئة والزبرقان» فإلى اليوم هي واقعة ثقافية تنبض بالحياة في مجالس العلم والأدب، تدل على روح التحدّي لدى الحطيئة، حتى إن بعضهم صنف بيته في الزبرقان بأنه أهجى بيت قالته العرب.... وفي هذه الوقائع جميعها كان المجازُ نزيفًا للحرية ونشيدًا للصحراء وأداةً للتحرر.

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، تحقيق: حسن نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 257/3.